جنازتان

انتهت مراسم العزاء، الجميع يتمتم بكلمات المواساة المعتادة ويربت على الأكتاف، لكن مَن يصغى ومن يحتضن ضعفى؟! أخيراً بعدما خلت المقاعد، أخذت شهيقاً معبأ ببقايا دخان احتراق التبغ ممزوجاً بأفخم أنواع العطور. ليسوا مزيفين، إنما هو الواقع! مَن سيتفاوض مع حزنك أو يلبس صدماتك؟!

بقيت جالسة لا أقوى على النهوض. شردت فى لون الكرسى أحمر مبهج! سواد يُلبس، تستقبله المقاعد المكتسية بزهوة الاحتفال!

أقبل علّى زوجى متقمص ملامح الحزن بكل ما فيه. لست مذهولة، ولن أطالبه بأكثر من التقمص. ليته يصمد!

وكأنه يختلس السمع لحديثى الداخلى. مد لى يده فى حنان فاستندت على ذراعه وأنا منهكة، بنبرة شاحبة مفتعلة خرجت كلماته "هيا بنا إلى المنزل. منذ الصباح والأولاد بدوننا، يكفى من الوقت ما مر من تركنا لهم"

مررنا بالسيارة على منزل أخته، خرجت لنا بفستان يليق بالمراهقات وزينة فجة طمست ملامحها تحت طبقات مرهقة عجزت عن ستر جفاف عميق أصاب الروح، تقبض بكلتا يديها على كتفى أولادى الصغار أمامها كأنهما متلبسان فى تهمة إزعاج للسلطات. تقمصت مثل أخيها الحزن برغم الألوان الملطخة على وجهها، فكانت النتيجة كالمهرج الحزين، لم أجد مفراً من الابتسام لفظاعة المشهد. ادّعيت أنى ممتنة لرعاية أولادى، ورسمت البسمة كنوع من الشكر. لكن تسللت لها أمارات السخرية، فشلت فى التقمص.

وصلنا البيت، سألنى ابنى ذو الخمس سنوات "لماذا ترتدين الأسود وتبتسمين كأشرار الكرتون؟"

أفلتُ ابتسامة خالصة من بقايا السلام النفسى الصامد فى جوفى، لم أستطع أن أحدثه عن حزنى وعن موت جده وعن مدى انكسارى، احتضنته بجوارحى الهشة، استجاب لاحتياجى بعفوية فاعتصرنى بشدة، ليمنحنى جرعة من المسكنات الإلهية بلا مقابل. أخبرته إنى حزينة لأنه لم يكن معى منذ الصباح.

دخلت غرفتى وجدت زوجى قد خلع ملابسه وألقاها كالعادة مبعثرة فى جميع الأركان، نظرت له ثم للفوضى التى أحدثها، نظرة أم تحتقر أفعال ابنها! بدا على وجهه تعبير أملس ساذج. تنحنح وقال:

"آسف سأعلقها على المشجب، لكن يجب أولاً أن أنهى شيئاً ضرورياً. طوال اليوم كما تعرفين كنت مشغولاً معكِ ، فتراكمت رسائل البريد الإلكترونى فوق رأسى"

صدمتنى دوافعه، ليته لم يتكلم، هل يريد ثناءً على وقوفه معى فى عزاء أبى!

طرق ابنى الصغير باب الغرفة. يجر جسده فى كسل. أنبأنى إنه جائع، جذبني من ذراعى بإصرار الصغار، فتألمت، صرخت فى وجهه أن يكف عن الإلحاح فانخرط فى البكاء، انتفض زوجى مشمئزاً لردة فعلى ورمقني نظرة زوجة الأب السادية. عاتبنى هامساً كفحيح الأفعى قبل أن تنقض على الفريسة:

"ماذا تفعلين معه! لا زال صغيراً لا يدرك حقيقة الأمور، سيصاب بعقدة بسبب تصرفك هذا، لن تمحى طوال حياته"

حدثت نفسي سراً (لا تدرى كم العقد التى أهديتني بها دون قصد، أو ربما عمداً!) أحياناً نتغافل عن رؤية الحقيقة كى نتأقلم.

استسلمت لبكاء ابنى وذهبت معه مرغمة إلى المطبخ. فى طريقنا حاولت بكل الطرق إقناعه بالتنازل عن عشاء "البان كيك" والتغاضى عنه اليوم ويكتفى بأى "ساندوتش" لكن لجاجة الأطفال دوماً تنتصر. شرعت أعد له أصعب "بان كيك" مر علّى فى حياتى. صورتى المنعكسة على غطاء الموقد الملطخ بالدسم، هى خير انعكاس لحالتى الآن. وكأنى تصبغت ببقايا فضلات الأمس. خفق قلبى منقبضاً وأنا أضرب البيض ضرباً مبرحاً أنتقم فيه من الحياة، لماذا نسمح لشخصٍ آخر مشاركته حياتنا وهو غير مؤهل للمشاركة؟ ما هو دور أقرب الناس فى أزماتى؟ أسئلة فلسفية فى مستوى الطالب المبتلى، بلا إجابة نموذجية. ما إن نضجت حوافه، صفعته على وجهه الآخر، النضج دوماً يسبق الاحتراق. وتبقى النار بحاجة لمن يتحكم في شعلتها.

رن هاتفى. أفزعنى اختراق الصمت، لفحتنى حرارة المقلاة، فتراجعت خطوة للخلف. لعقت معصمى وأنا أتحقق من الاسم الظاهر على الشاشة، إنها أقرب أصدقائى التى تعيش بالخارج. لم تستطع أن تلحق بمراسم الدفن والعزاء.

تنفس قلبي، كأن الحبل لم يبلغ مداه حول رقبتى، هناك فرصة للاستيعاب.

أجبتُ على الهاتف، فتأهب جسدى للفوران، يكتنز تحت جلده دموعاً متأججة تبحث عن مخرج. كأن كيانى بأكمله يستعد للنحيب.

واستنني بكلمات معتادة فى هذه الظروف، وما إن بدأت أفرغ شحنتى من الانفعالات فى كل ما يؤلمنى، إذ بزوجها يبالغ فى كلامه رافعاً صوته. أعلم هذا الأداء جيداً. جعلني فقدت لحظتى المنتظرة، ابتلعت حريقى واستدعيت قناعى الرسمى. فطلبت منها أن تنهى المكالمة مدَّعية إنى بخير، لم يتحمل دقائق تقضيها معى عبر الهاتف، وبقدر احتياجى لها أغلقت الخط وأغلقت معها توقعاتى. كبحتُ كل مشاعرى المتأهبة دسستها بصعوبة داخلى مرة أخرى، كالخزانة المترعة بالثياب المكدسة. لم تنجح صديقتى فى التخفيف عنى، كلنا مرغمات على الطاعة، حتى لو فى أمريكا الجنوبية!

مرت الأيام. عاد الروتين ليصبح المألوف أكثر قسوة بعد فقد الأحباب، هذه المرة أضيفت تفاصيل اليتم على ملامح الصورة، لم يهتم أحد بأنك لا زلت صامتاً، لن يلتفت لمقلتيك الدامية، ولم يطّلع أحد على رعشة أطرافى التى استعمرتنى مؤخراً، بل أصبحت الناس تنتظر منى المزيد من الصمود.

اليوم دهس الواقع صمتى، أحاله ركاماً. عاد زوجى من العمل مبكراً. فاجئني برجوعه! كان يسعل كالأطفال ويمسك رأسه بقوة قد تزيد من ثقلها أكثر مما تفعله نزلات البرد! كم أنتم عائلة محترفة فى التقمص!

ارتمى فوق السرير بحذائه، معدوم العافية. اقتلعت نعليه وتركته حتى ينام، أغلقت الباب، ونفخت بقدر ما تحمله الأيام القادمة لى مع زوج أصابه نزلة برد.

حان وصول الأولاد من المدرسة. تصديت لصخب العودة المعتاد، فطلبت منهم الهدوء لأن والدهم فى البيت ومريض. أعطيت السبع وصايا أملاً فى يومٍ هادئ، قررت تغيير قائمة الطعام؛ اليوم حساء لسان العصفور والدجاج المسلوق والخضر المشوية.

أثناء انشغالى بالطهى، كان القَدَرُ يطهو لى واقعة تفجر حمم البركان المشحونة بمسامى، تسلل ابنى الأصغر إلى غرفة أبيه ظنا منه أنه يحتاج لسؤاله، أخذ ينادى عليه ويلكزه وهو غارق فى نومه، كى يفيق ويطمئن عليه بنفسه! يعجبنى إيمان الأطفال بأفعالهم البريئة التي تصادفنا كى تصفعنا بالمأساة أكثر.

صرخ زوجى بكل ما فيه من صحة! كيف لهذا الجسد المدّعى المرض أن يثور بهذه القوة؟! يا حفيظ!

قفز قلبى من مخبئه. ظننت أن هناك فاجعة قد حدثت، لن أقوى على المزيد. هرولت ممسكة بالمغرفة المعدنية، كمن يستعد للهجوم. تاركة الخضر تشوى نفسها على النار، كى ألحق الكارثة قبل أن تكتمل.

إنهالت علَى جميع المصطلحات الجارحة. أتُهمت بالتقصير وعدم إحساسى به، بل عدم الإحساس مجملاً، لم ينس أن يقتنص الفرصة ليذكرنى بالقميص الذى تأخرت فى غسله الأسبوع الماضى، وكأنى السبب فى عاصفة "شيماء" الترابية التى كانت تغطى مصر كلها آنذاك. لم ينس أن يعلمنى الأصول وكتالوج الزوجة الأصيلة، والزوجة الهندية التى تقدس زوجها والبقرة! وبالطبع أضاف فقرة المصاريف والماديات وشد الحزام، لا يكف عن تكرار هذه الجملة منذ رجوعنا من أجازة أسبوع العسل! ثم ختم حديثه بمدى اهتمامه بى فى أصعب أوقاتى، خاصة فى الفترة الأخيرة بعد وفاة أبى! وأنه تحمل الكثير، وذكر اليوم الذى أستأذن فيه بالانصراف مبكرا من عمله يوم الدفن!

فاقت رائحة الشواء رائحة الوقاحة أكثر من المعتاد! طاحت المغرفة من يدى اصطدمت برأسه فأخرسته مذهولا، وصلت المطبخ فكانت الخضر قد تفحمت، فز ورائى مسرعا فوجد الطعام بلون قلبه الفظ، تمتم بكلمات حفظتها عن ظهر قلب، ثم خرج من المطبخ مختنقاً برائحة الدخان الكثيف، بينما داخله كان الحريق يتغذى على غطرسته.

وقف ابنى عند مدخل المطبخ يسألنى على استحياء ماذا حدث؟! جلست على الارض ملتُ بظهرى على الثلاجة وانفجر بركانى بين شهقات ونشيج متبادل، ثم بزفرة مكتومة من الأعماق مزقت جدار الصمت فأعترفت له: قد مات أبى. وقف الجميع يراقب انهيارى. تأرجح الضوء لحظة كأنه يعافر البقاء، ثم احترق تاركاً المكان للظلام فوق رؤوسهم بلا عودة.